المقال الخامس

الأقباط في القرن التاسع عشر

وكيرلس الرابع

جاء القرن التاسع عشر، والكنيسة القبطية في أسفل درجات الانحطاط والضعف. ذلك، نتيجة ما تعرضت له طوال القرون الماضية من الإضطهادات المتوالية، منذ الغزو العربي لمصر في القرن السابع الميلادي. وفي القرون الخمس الأخيرة- قبل القرن التاسع عشر- كانت تتعرض يومياً للسلب والنهب وقتل أتباعها، وذلك إبان حكم المماليك والأتراك. ولم يكن الاضطهاد مصدره الحكام فقط، بل الشعب المسلم أيضاً.... ذلك لأن الاضطهاد كان دينياً.

وسبب انتشار الإسلام ... تراجعت الفنون اليدوية والصناعات الحرفية التي كان يجيدها الأقباط- ذلك لأن الدين الإسلامي نبذها. صناعة النقش على النحاس والخشب تراجعت، بينما ماتت صناعة التصوير والرسم كليةً. أيضاً، النقش على الحجارة المستخدم في الطراز المعماري القبطي، والذي برع فيه الأقباط خلال القرون من 12إلى 15 تراجع أمام الذوق الفرنسي المعماري أيام حكم محمد علي.

بإختصار شديد، أصبح الناس لا يبالون بصناعات الأقباط الحرفية والفنون الجميلة، فانحدر الأقباط درجات في الفنون، وأصبحوا لا يصلحون سوى للأعمال الكتابية( المالية والادارية) في مصالح الحكومة.

وبخصوص أعداد الأقباط، تناقصت بشدة.... فكان تعدادهم أيام حكم محمد علي 150 ألفاً فقط، بعد أن كانوا يُعدون بالملايين قبل الغزو الإسلامي. ولكنهم بداية من عصر محمد علي بداءوا يتزايدون ويتحسنون كماً وكيفاً.

وقد استفادت الكنيسة القبطية من جهود بعض الإنجليز، فتم طبع الأربعة أناجيل بالعربية والقبطية عن طريق الرئاسة الأسقفية بإنجلترا. كما طُبعت ترجمات عربية من تفاسير وأقوال الآباء الأقباط القدامى. أيضاً، في أربعينات القرن التاسع عشر، تم إنشاء كلية لاهوت للشباب القبطي بمساعدة الأسقفيين بإنجلترا... وكان من تلاميذها البابا المشهور كيرلس الرابع الملقب بأبي الأصلاح (سوف نتكلم عن جهوده وأعماله بعد قليل).

في القرن التاسع عشر، عاصر أربعة باباوات أقباط، محمد علي وخلفاءه ( حتى الملك فؤاد) وهم:

* البابا بطرس السابع(109) أو بطرس الجاولي(1809- 1852م).
* البابا كيرلس الرابع 110 (1853- 1862م) أبو الإصلاح.
* البابا ديمتريوس الثاني 111 (1862- 1870م).
* البابا كيرلس الخامس 112 ( 1874- 1927م).

في السطور التالية، نتكلم قليلاً عن البابا كيرلس الرابع المُلقب بأبو الإصلاح، لأنه خلال رئاسته القصيرة للكنيسة (سبعة سنوات منهم اتنين في الحبشة)، قام بإصلاحات كثيرة لخدمة الكنيسة والمجتمع.

البابا كيرلس الرابع

(1853- 1861م)

هو البابا (**110)** في الكرازة المرقسية، والمعاصر لخليفة محمد علي، سعيد باشا ( 1854- 1863م). ولقب البابا الرسمي هو: البابا الكلي القداسة، بطريرك الأسكندرية وجميع الديار المصرية وبلاد النوبة (السودان) والحبشة (إثيوبيا) والخمس مدن الغربية(ليبيا) وجميع الكرازة المصرية (حالياً: تم إضافة بلاد المهجر).

عندما رُسم بطريركياً، كان أول عمل قام به هو بناء مدرسة الأقباط الكبرى بالأزبكية. وقد تم ذلك عن طريق الاكتتاب، الذي افتتحه بخمسة الآف قرش.... بعدها توالت التبرعات. وعليه، اشترى بعض البيوت القديمة الواقعة عن شمال الكنيسة المرقسية وهدمها، وبنى مكانها المدرسة الكبرى. وقد فتحها للجميع بلا استثناء؛ للأقباط والمسلمين واليهود. وجعل فيها التعليم مجاناً بالإضافة إلى صرف الكتب والأدوات المدرسية. وكان يتفقد العمل فيها يومياً، بل كان في بعض الأحيان يجلس مستمعاً- مع التلاميذ- للمعلم وهو يشرح الدرس، ثم يعلق بعد ذلك أنه قد استفاد معهم بمعلومات لم يكن يعرفها قبلاً. شهد أحد المعاصرين له قائلاً:

" وفي حارة الأقباط مدرسة عظيمة يعلمون فيها اللسان القبطي القديم والتركي والإيطالياني والفرنساوي والانكليزية والعربي. وهم يقبلون فيها جميع الطوائف وينفقون على التلاميذ من مال المدرسة. وهذه بناها البطرك كيرلس القبطي وأنفق عليها حوالي 600 ألف قرش".

وكان التعليم بمدارس أبي الإصلاح كالآتي:

اللغات : العربية- القبطية- الإنجليزية- التركية- الإيطالية- الفرنسية.

العلوم الحديثة: التاريخ- الجغرافيا- الانشاء- الهندسة- الكيمياء- الخطوط.

الفنون الجميلة: الرسم والموسيقى والألحان.

مدرسة البنات

أدرك البابا أن تعليم الأولاد دون البنات، سيقيم هوة فكرية بين الإثنين تنعكس سلباً على العلاقة الزوجية، وإن تعلم البنات سوف يجعل منها أماً صالحة لتربية أولادها. وعليه، افتتح مدرسة للبنات بحارة السقايين، وشيد بجوارها كنيسة حتى تكتمل عملية التعليم والتنشئة، فينمو العقل والروح معاً. وفي سعيه هذا، استند لبعض أقوال الآباء مثل أكليمندس الذي قال: إن الجنس (ذكر وأنثى) أمر عرضي يزول بزوال هذا الجسد. والجزاء الأبدي ليس لذكر أو لأنثى بل للإنسان فقط، إذ تزول الرغبة الجنسية التي تفرق بين الناس...". وقد فتح أبواب مدرسة البنات أيضاً، للجميع بدون تمييز؛ للأقباط والمسلمين واليهود.

أيضاً، اهتم بأن تأخذ البنت حقها في الميراث... وقرر عدم تزويجها قبل الرابعة عشر من عمرها.... وكذلك أن تقرر أمام الكاهن عند زواجها بالرضا التام عن الزواج قبل اتمامه.... كما استبدل عقد الإملاك في الزواج بالتراضي الذي يسهل حله بخلاف عقد الإملاك.

**دراسة اللغة القبطية والألحان**

اللغة القبطية هي لغة قدماء المصريين التي كانوا يكتبوها بالصور الهيروغليفية .... وبدلاً من أن تكون الحروف صوراً كما في اللغة الهيروغليفية، كُتبت بالحروف اليونانية مع إضافة الحروف السبعة الأخيرة الموجودة في لغة قدماء المصريين ولا مثيل لها في اللغة اليونانية. وقد اهتم البابا كيرلس الرابع بأن يتعلم التلاميذ اللغة القبطية بقواعدها اللغوية والنحوية، رغم أن معرفته بها اقتصرت على الصلوات الكنسية. وقد كان قدوة في ذلك، فتعلمهما هو أيضاً- وعين لتدريسها عريان جرجس مفتاح.

وقد ساعد بهذه الخطوة، استكمال الأبحاث التاريخية، وترجمة بعض أمهات الكتب القبطية القديمة إلى العربية.

أيضاً، اهتم بتعليم التلاميذ ذوي الأصوات القوية، الألحان والمردات الكنسية، وعهد للقمص تكلا (أحد كهنة الكنيسة المرقسية بالأزبكية) بذلك. ورأى أن يرسم هؤلاء التلاميذ المرتلين شمامسة في الكنيسة وجعل الآباء والأمهات يحرصون على حضور الكنيسة لسماع ترتيل أولادهم.

مطبعة من النمسا

أول مطبعة تدخل مصر، كانت أيام قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر. بعدها اشترى محمد علي باشا المطبعة الأميرية. وعليه، تكون المطبعة التي اشتراها البابا كيرلس من النمسا هي ثالث مطبعة تدخل مصر.

وكان فرحته بها عظيماً إلى درجة أن طلب من وكيل البطريكية- عندما وصلت المطبعة إلى الأسكندرية، كان آنذاك بدير الأنبا أنطونيوس- أن يستقبل المطبعة إستقبالاً رسمياً. وقد كان ... لبس الكهنة والشمامسة ثيابهم الكهنوتية التي يرتدونها وقت الصلوات، وساروا أمامها وهم يترنمون بالألحان!

الوساطة بين مصر والحبشة

قام النزاع بين حكومة مصر ( مصر والسودان) وحكومة الحبشة على الحدود الفاصلة بين الدولتين. فأوفد سعيد باشا البابا كيرلس إلى إمبراطور الحبشة، ليساعد على حل النزاع. وهكذا سافر البابا إلى هناك، واُستقبل استقبالاً حافلاً من قبل الإمبراطور – إلا أن الأمور انقلبت عليه، عندما أرسل سعيد باشا الجيش المصري إلى الخرطوم، حيث ظن الإمبراطور أن إرسال البابا هو مجرد خدعة وتهدئة للأمور، حتى يستطيع الجيش المصري- الموجود في الخرطوم- إحتلال أجزاء من بلاده.

وكان أن قبض الإمبراطور على البابا وأودعه في السجن، إلا أن الملكة ومعها شيوخ المملكة أقنعوا الإمبراطور بأن يأذن للبابا بكتابة رسالة إلى سعيد باشا، مفادها أن يسحب جيشه من الخرطوم لتهدئة الأوضاع. وقد كان، نجحت وساطة البابا في منع الحرب بين المملكتين؛ المصرية والحبشة.

إصلاحات كثيرة أخرى

خلال سنواته القليلة في رئاسته للكنيسة قام بمجهودات وإصلاحات أخرى كثيرة مثل:

* تنظيم المكتبة الباباوية، وإصلاح التالف من نُسخ الكتب القديمة.
* الاهتمام بالكهنة ورعايتهم، حيث كان يلتقي بكهنة القاهرة إسبوعياً.
* إنشاء ديواناً للأوقاف، به سجلات لحصر جميع الأوقاف والحجج الخاصة بها.
* تجديد الكنيسة المرقسية بالأزبكية.
* إلى آخر الاصلاحات الكثيرة التي قام بها.....

موته

يقال أنه مات بالسم الذي دسه له رجال الوالي سعيد باشا، أو بالدواء الذي أعطاه إياه طبيب القصر. وسبب ذلك شائعات وصلت إلى الوالي تفيد بأن البابا سوف يتحالف مع الروم والأرمن، وهذا سيقوي من مركزه بسبب مساندة روسيا له، وفي نفس الوقت يُضعف من مركز الوالي. وعليه، قرر الوالي قتله.

المراجع

1. تاريخ الكنيسة المصرية للكاتبة الإنجليزية لويزا بوتشر- مكتبة المحبة.
2. قصة الكنيسة القبطية(4) بقلم إيريس حبيب المصري- مكتبة المحبة.
3. الأقباط- النشأة والصراع للكاتب ملاك لوقا- مطبعة أنجليوس.